

نحو ثقافة دينية شرعية رشيدة في زمن الشبهات والفتن - ١

كتب: أسامة شحادة

تكشف المحاولات المتكررة والدائمة والمتغيرة الشكل والأدوات والمسوغات لمصادمة قطعيات الإسلام وثوابته القرآنية أن مزاعم أعداء الإسلام بأن هدفهم تجديد الخطاب الديني، ومحاربة التطرف والغلو، وأنهم لا يسعون لتبديل الدين أو الاعتراض على الثوابت والقطعيات كلها مزاعم كاذبة وشعارات مضللة، فهاهم أولاء يسعون لضرب الإسلام وتفريغها من محتواها بنفي حجية السنة النبوية التشريعية؛ مما يعطل الإسلام.

موثوقية نصوص الوحي

المصدر الأول لحقائق الدين هو: موثوقية نصوص الوحي التي يقوم الدين عليها؛ إذ إن هذا الدين الذي هو دين كل الأنبياء، يقوم على تلقي الوحي الرباني من قبل الرسل والأنبياء وتبليغه للناس ﴿نَا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ كَمَا أَوْحَيْنَا إِلَى نُوحٍ وَالنَّبِيِّينَ مِنْ بَعْدِهِ وَأَوْحَيْنَا إِلَى إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالْأَسْبَاطَ وَعِيسَى وَأَيُّوبَ وَيُونُسَ وَهَارُونَ وَسُلَيْمَانَ وَآتَيْنَا دَاوُودَ زَبُورًا﴾ (النساء: ١٦٣)، ولذلك كان من أعظم الظلم والجرائم الكذب على الله - عز وجل - وأدعاء بعض الدجالين النبوة وتلقي الوحي، قال - تعالى -: ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا أَوْ قَالَ أُوحِيَ إِلَيَّ وَلَمْ يُوحَ إِلَيْهِ شَيْءٌ﴾ (الأنعام: ٩٣).

الرسالة الإجمالية

ولما كان الإسلام والرسالة المحمدية خاتمة الرسالات فقد تكفل الرحمن بحفظها وحفظ وحيها، وهو القرآن الكريم والسنة النبوية لقوله - تعالى -: ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ﴾ (الحجر: ٩)، ومن المنفق عليه بين أهل العلم أن

تعد تكذيبا صريحا للقرآن الكريم.

ثلاثة مصادر

وبعد استيعاب هذه الحقيقة يلزم إدراك أن حقيقة الدين يُتوصل لها من خلال ثلاثة مصادر كما يقول الأستاذ بسطامي سعيد في كتابه المتميز (مفهوم تجديد الدين): «إن مصادر حقائق الدين ثلاثة أشياء: النصوص الموحاة، ومعاني النصوص، والاستنباط منها، ولكل واحد من هذه الأقسام منهج علمي محدّد مضبوط؛ فهناك منهج علمي لتوثيق النصوص، ومنهج لطريقة فهمها، ومنهج للاستنباط منها، وما يتوصل إليه عن طريق هذه المناهج حقائق لا شك في ذلك».

الثقافة الدينية الرشيدة

والثقافة الدينية الشرعية الرشيدة التي تحصّن المسلم من الشبهات الفكرية العصرية كافة، أو ذات الجذور القديمة، تقوم على إدراك حقيقة دين الإسلام، التي يُتوصل إليها بالأشياء الثلاثة سالفة الذكر.

وإن مما يحتاجه المسلمون في هذا الزمان هو الحرص على امتلاك ثقافة دينية شرعية رشيدة من مصادر مأمونة، تحصّنهم من مزالق تحريفات الغلو والتطرف الديني والعلماني للإسلام وأحكامه، وأيضاً تحصّنهم من مزالق التمييع للدين وتبديل أحكامه من قبل أصحاب الأهواء والأغراض من أعداء العلم والدين وأصحاب الدعوات الهدامة واللا دينية.

أهم الركائز

ومن أهم ركائز امتلاك هذه الثقافة الدينية الشرعية الرشيدة فهم الإسلام بشريعته وعقيدته التي رضيها الله - عز وجل - الخالق لعباده ﴿الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتَمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيْتُ لَكُمْ الْإِسْلَامَ دِينًا﴾ (المائدة: ٣)؛ ولذلك فأى دعوى بأن الدين مسألة ذوق كالفن والأدب وليس له منهج علمي أو معايير موضوعية هي سفسطة خبيثة مقصودة وتستهدف نسف مكانة الدين ومرجعياته في حياة البشر، وأي دعوى بأن هناك أشياء في الدين غير مكتملة، أو أن العصر الحديث يتطلب تبديلا في الدين بخلاف ما كان في عصور سابقة



من أهم ركائز امتلاك الثقافة الدينية الشرعية الرشيدة فهم الإسلام بشريعته وعقيدته التي رضيها الله - عز وجل - الخالق لعباده

من ليلتك متّ وأنت على الفطرة»، قال البراء: فرددتهم لأستذكرهن، فقلت: آمنت برسولك الذي أرسلت، قال -عليه الصلاة والسلام-: قل: «آمنت بنبيك الذي أرسلت» رواه مسلم.

توثيق السنة النبوية

ومن مظاهر توثيق السنة النبوية بمنهج علمي أن الرحلة والسفر لطلب تعلم السنة النبوية والتوثيق من صحتها بدأ من عصر الصحابة -رضوان الله عليهم-؛ فهذا جابر بن عبد الله يسافر على ناقته في الصحراء مسيرة شهر ليسمع حديثاً واحداً من عبدالله بن أنيس لم يكن سمعه جابر من النبي -ﷺ- مباشرة! وروي عن أبي بكر الصديق أنه أول من تثبت في ضبط الأخبار حين حدّثه المغيرة بن شعبة أن النبي -ﷺ- أعطى الجدة سدس الميراث؛ فقال له الصديق: «هل معك غيرك» فشهد معه محمد بن مسلمة.

نهج الصحابة والسلف

ومن نهج الصحابة والسلف كانت انطلاقة العلوم الشرعية المختصة بالتوثيق من الروايات النبوية وفحص سلامتها، وطرح الدخيل عليها أو تصحيح الخطأ والوهم المختلط بها، وقد بلغت علوم توثيق السنة النبوية حد تفريق العلماء بين روايات الراوي الواحد بحسب عمره؛ فيقبلون حديثه في مرحلة عمرية معينة، ويرفضون حديثه في مرحلة أخرى! وقد يقبلون حديثه إذا حدث عن كتاب، ويرفضون حديثه من ذاكرته لسوء حفظه أو تغيره من السن! وقد يقبلون حديثه عن شيخ أو راو معين، ويرفضون حديثه عن غيره من الشيوخ أو الرواة لعدم طول اللقاء به والتثبت عنه!

حقيقة ساطعة

في الختام: هذه إشارات في بيان الدقة البالغة في توثيق نصوص الوحي الإسلامي في القرآن الكريم والسنة النبوية، وهي حقيقة ساطعة، يحق للمسلمين الافتخار بها على كل أمم الدنيا، ويلزم أن تكون هذه قناعة وثقافة دينية شرعية أصيلة، لا تقبل أي تشكيك أو طعن، ويلزم أن تتوسع وتنتشر بكثافة الأبحاث والمقالات والكتب التي تقرب هذه الحقيقة لعامة المسلمين بوسائل التعليم ونشر الأفكار وبكافة اللغات لسد الطريق على طوفان الشبهات والافتراءات على الإسلام والشريعة الغراء.

الحروف بالتقريب حتى لا تختلط على غير العرب، ثم ظهر التشكيل للحرف، ثم نما علم الرسم العثماني للقرآن الكريم وتقسيم القرآن الكريم لأجزاء وأحزاب، وهكذا.

العلماء المنصفون

وكانت نتيجة ذلك اعتراف العلماء المنصفين من كل ملة ودين بسلامة القرآن الكريم من النقص والزيادة أو التحريف والتبديل، بخلاف الكتب السماوية السابقة التي يعترف أهلها بوقوع التبديل والتحريف والنقص والزيادة فيها والتناقض، وهناك كتب وأبحاث عديدة تفصل دقائق هذا المنهج العلمي الفريد الذي أكرم الله -عز وجل- به المسلمين.

السنة النبوية

أما السنة النبوية فقد أنعم الله -عز وجل- على المسلمين بعلم الإسناد والتراجم بما يميزهم عن كل الأمم والشعوب، وبهذه العلوم وما تفرع عنها تمكّن المسلمون من حفظ السنة النبوية وحملها للبشرية جمعاء ليوم الدين، من خلال عقلية عبقرية إبداعية.

منهج الدقة والتثبت

وكان النبي -ﷺ- هو من أرسى منهج الدقة والتثبت والإتقان في تلقي السنة النبوية بين أصحابه؛ فحين كان البراء بن عازب يتعلم من النبي -ﷺ- دعاء ما قبل النوم أخذ يردده حتى يحفظه فأخطأ في كلمة بسيطة فجعل محل كلمة نبيك كلمة رسولك، فردّه النبي وأصلحها له! يقول البراء: قال -عليه الصلاة والسلام-: «إذا أخذت مضجعت فتوضأ وضوءك للصلاة، ثم اضطجع على شقك الأيمن، ثم قل: اللهم إني أسلمت وجهي إليك، وفوضت أمري إليك، وألجأت ظهري إليك رغبة ورهبة إليك، لا ملجأ ولا منجى منك إلا إليك، آمنت بكتابك الذي أنزلت وبنبيك الذي أرسلت، واجعلهن من آخر كلامك، فإن متّ

السنة النبوية من الذكر الذي نزل من عند الله -عز وجل- وأنها مشمولة بالحفظ الرباني، قال الأمدى في كتابه (الإحكام في أصول الأحكام): «والذكر اسم واقع على كل ما أنزل الله على نبيه -ﷺ- من قرآن أو من سنة يبين بها القرآن».

ضبط النص القرآني

والكلام في موثوقية النص القرآني وضبطه كلام طويل لا يكفي مقالات مطولة بل كتب ضخمة؛ ولذلك سأكتفي بإشارات تكفي المنصف، وترشد المستكثر لمزيد من البحث والمطالعة، وقد سبق أن كتبت مقالات عدة بعنوان (قصة جمع القرآن الكريم)، بيّنت فيها تفاصيل تكوين لجنة علمية لعملية جمع القرآن الكريم في مصحف واحد بعد أن كانت صحفا متفرقة مكتوبة على أشياء مختلفة من الجلد والعظم وعصب النخل والخشب وغيرها، وأن هذه اللجنة كان لها منهج علمي في غاية الدقة والموضوعية في مقارنة المکتوب من القرآن الكريم مع المحفوظ في الصدور، علماً أن الحفظ والثقافة الشفوية هما الأصل في ثقافة العرب وغيرهم من الأمم في ذلك العصر.

منهج سائد

والتركيز على موثوقية ضبط القرآن الكريم كان منهجاً سائداً في عهد النبي -ﷺ- وبين أصحابه -رضوان الله عليهم-؛ فهذا عمر الفاروق حين سمع هشام بن حكيم يقرأ سورة (الفرقان) بخلاف ما حفظها عمر من النبي -ﷺ-، أمسك به من ثيابه وذهب به إلى النبي -ﷺ- فقال: إني سمعت هذا يقرأ سورة (الفرقان) على غير ما أقرأتها! فقال رسول الله: «أرسله، اقرأ» فقرأ القراءة التي سمعته يقرأ؛ فقال رسول الله: «هكذا أنزلت» ثم قال لي: «اقرأ» فقرأت فقال: «هكذا أنزلت إن هذا القرآن أنزل على سبعة أحرف فأقرؤوا ما تيسر منه». متفق عليه. وقد تطورت مع الزمن كثير من العلوم المساعدة لتوثيق النص القرآني وسلامته فظهر إعجاز

نحو ثقافة دينية رشيدة في زمن الشبهات والفتن - ٢

كتب: أسامة شحادة

ما زلنا نستعرض مصادر الحقائق الدينية في الإسلام، وهي كما ذكرها الأستاذ بسطامي سعيد في كتابه المتميز: (مفهوم تجديد الدين): ثلاثة أشياء: النصوص الموحاة، ومعاني هذه النصوص، والاستنباط منها، ولكل واحد من هذه الأقسام منهج علمي محدد مضبوط؛ فهناك منهج علمي لتوثيق النصوص، ومنهج لطريقة فهمها، ومنهج للاستنباط منها، وما يتوصل إليه عن طريق هذه المناهج حقائق لا شك في ذلك.

منهج توثيق النصوص الشرعية

في المقال الماضي تناولنا تفرد منهج توثيق النصوص الشرعية في الفكر الإسلامي على سائر الأديان بموضوعيته وعلميته ودقته، واليوم نعرض المنهج العلمي الدقيق في فهم النصوص الشرعية، المتمثلة في الوحي الرباني من القرآن الكريم والسنة النبوية.

من المعلوم بدهاءة للعقول أن الغاية والقصود من المخاطبة والكتب فيما بين الناس، هو الإعلام والتعريف والتعليم؛ فإذا انتفت هذه الأمور عن الخطاب أو الكتب؛ فلم تقد خبراً أو معلومة، أو تعليماً أو أمراً ونهياً، أو لم تفهم أصلاً أصبحت باطلاً ولغو لا قيمة له، وهو ما يتنزه عنه العقلاء والأدباء والقادة؛ فهل يعقل أن يكون الخطاب الإلهي والوحي الرباني غير مفهوم، ولا يُعرف مراده، ولا يحصل به الإعلام والتعليم والأمر والنهي؟

بالطبع سيكون جواب العقلاء والمنصفين: كلا، وسيتفقون على أن الخطاب الإلهي، والوحي الرباني، يجب أن يكون في غاية الوضوح، ومنتهى الفهم والإدراك، حتى تحصل به الفائدة، وتتحقق به الغاية.

مهمة النبي ﷺ

وهذا ما قرره القرآن الكريم بوضوح، من أن مهمة النبي ﷺ تبليغ الناس الوحي بألفاظه ومعانيه، كقوله -تعالى-: ﴿لَتبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ﴾ (النحل: ٤٤)، وهو ما أكده ربنا في مواضع عدة، من أن الغاية هي تدبر الوحي وفهمه، قال الله -تعالى-: ﴿كِتَابٌ أَنْزَلْنَاهُ إِلَيْكَ مُبَارَكٌ لِيَدَّبَّرُوا آيَاتِهِ﴾ (ص: ٢٩)، وقال -جلّ وعلا-: ﴿أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ﴾ (النساء: ٨٢)، وقال أيضاً: ﴿أَقْلَمَ يَدَّبَّرُوا الْقَوْلَ﴾ (المؤمنون: ٦٨)، وكذلك قال -تعالى-: ﴿إِنَّا جَعَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا

لعلكم تعقلون﴾ (الزخرف: ٣)، ومعلوم أنه لا تكليف إلا بمقدور؛ فتدبر القرآن وتعقله أمر ممكن؛ لأن طبيعة الوحي الرباني للرسول جميعاً، أنه بلاغ مبين لقوله -سبحانه وتعالى-: ﴿فَهَلْ عَلَى الرَّسُولِ إِلَّا الْبَلَاغُ الْمُبِينُ﴾ (النحل: ٣٥).

ولا شهادة أعظم من شهادة الله -عز وجل- في القرآن الكريم بتمام الدين وبرضاه عن اكتمال الوحي واكتمال الفهم للدين في قوله -تعالى-: ﴿الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتَمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيْتُ لَكُمُ الْإِسْلَامَ دِينًا﴾ (المائدة: ٣)، وهو ما أكده النبي ﷺ بقوله: «قد تركتكم على البيضاء ليلها كنهارها». رواه ابن ماجه وصححه الألباني.

أركان منهج الفهم النبوي

وأركان منهج الفهم النبوي وتعليمه للصحابة معاني الوحي والنصوص الشرعية، يقوم



مهمة النبي ﷺ تبليغ الناس الوحي بألفاظه ومعانيه هو ما أكده ربنا في مواضع عدة، من أن الغاية هي تدبر الوحي وفهمه

نهج التعليم من بعدهم

ولم يقتصر الصحابة على هذا الفهم لأنفسهم، بل نقلوه للتابعين من تلاميذهم، وأصبح هذا هو نهج التعليم من بعدهم عبر الأجيال؛ فنقل لنا الإمام ابن كثير في مقدمة تفسيره قول أبي عبد الرحمن السلمي: حدثنا الذين كانوا يقرئوننا القرآن، كعثمان بن عفان، وعبد الله بن مسعود، وغيرهما، أنهم كانوا إذا تعلموا من النبي ﷺ عشر آيات لم يجاوزوها حتى يتعلموا ما فيها من العلم والعمل، قالوا: فتعلمنا القرآن والعلم والعمل جميعاً؛ ولهذا كان الصحابة -رضوان الله عليهم- يبقون مدة في حفظ السورة؛ فابن عمر مكث في حفظ سورة البقرة سنين عدة. وروى ابن أبي مليكة، قال: رأيت مجاهداً سأل ابن عباس -رضي الله عنهما- عن تفسير القرآن ومعه ألواح؛ فقال ابن عباس -رضي الله عنهما-: اكتب، حتى سأله عن التفسير كله.

مركزية التراث العلمي الشرعي

وبهذا يتأكد لنا الوحي الرياني قرآناً وسنة بلغه النبي ﷺ لأصحابه بألفاظه ومعانيه، وهم نقلوه للبشرية والدنيا جمعاً، وأن حقائق الدين معلومة بثبوتها، ومعانيها معروفة بمعرفة معاني الوحي، ونصوص القرآن الكريم والسنة النبوية، ومن هنا يتبين لنا مركزية التراث العلمي الشرعي القائم على الأحاديث والروايات النبوية والآثار عن الصحابة وسلف الأمة، التي تتداول الفهم النبوي السليم للوحي الرياني؛ وبذلك تتحقق البشارة بالهداية في قوله -تعالى-: ﴿فَإِنْ آمَنُوا بِمَثَلٍ مَا آمَنْتُمْ بِهِ فَقَدْ اهْتَدَوْا﴾ (البقرة: ١٢٧).

فليس المقصود قطعاً سؤال الجدران والإبل، بل سؤال سكان القرية وأهل القافلة، كما يقتضي سياق الكلام العربي المعهود.

تعلموا الدين كله من النبي ﷺ

ومن هنا نجد أن الصحابة الكرام يصرحون بأنهم قد تعلموا الدين كله من النبي ﷺ؛ فهذا سلمان الفارسي رضي الله عنه يستهزئ به أحد المشركين؛ فيقول له: قد علمكم نبيكم كل شيء، حتى الخراءة؛ فقال له سلمان: أجل، لقد نهانا أن نستقبل القبلة لغائط أو بول، أو أن نستنجي باليمين، أو أن نستنجي بأقل من ثلاثة أحجار، أو أن نستنجي برجيع أو بعظم. رواه مسلم، وليلوم لا يزال (العالم المتحضر) لا يحسن الطهارة؛ فتشيع النجاسة وتنتها من أبدانهم وثيابهم!

الغيب وأشراف الساعة

عن أبي زيد عمرو بن أخطب رضي الله عنه، قال: صلّى بنا رسول الله الفجر، وصعد المنبر؛ فخطبنا حتى حضرت الظهر؛ فنزل فصلّى، ثم صعد المنبر؛ فخطبنا حتى حضرت العصر، ثم نزل فصلّى، ثم صعد المنبر؛ فخطبنا حتى غرّبت الشمس؛ فأخبرنا بما كان وبما هو كائن؛ فأعلمنا أحفظنا. رواه مسلم، ولا تزال الوقائع تؤكد صدق أخبار السنة النبوية، وصدق نقل رواة السنة وحفظهم عبر الزمان.

على تفسير القرآن الكريم بالقرآن الكريم كتصحيحه رضي الله عنه لمفهوم الظلم، فعن ابن مسعود رضي الله عنه قال: لما نزلت ﴿الذين آمنوا ولم يلبسوا إيمانهم بظلم أولئك لهم الأمن وهم مهتدون﴾ (الأنعام: ٨٢) قلنا: يا رسول الله، أيّنا لم يظلم نفسه؟ قال: «ليس كما تقولون، لم يلبسوا إيمانهم بظلم»؛ بشرك، أو لم تسمعوا إلى قول لقمان لابنه: ﴿يا بني لا تُشرك بالله إن الشرك لظلم عظيم﴾ (لقمان: ١٢) رواه البخاري.

تصحيح الفهم من النبي ﷺ لأصحابه

أو على تصحيح الفهم من النبي ﷺ لأصحابه، كما في حوار أم المؤمنين عائشة للنبي ﷺ الذي نقله البخاري؛ إذ كانت لا تسمع شيئاً لا تعرفه، إلا راجعت فيه حتى تعرفه، وأن النبي ﷺ قال: «من حوسب عدّ ب»؛ فقالت عائشة: أوليس يقول الله -تعالى-: ﴿فسوف يحاسب حسابا يسيرا﴾؛ فقال -عليه الصلاة والسلام-: «إنما ذلك العرض، ولكن من نوقش الحساب يهلك».

معاني اللغة العربية

أو على معاني اللغة العربية المعروفة في زمنهم وسياق الكلام، كما في قوله -تعالى- في قصة يوسف -عليه الصلاة والسلام-: ﴿وَاسْأَلِ الْقَرْيَةَ الَّتِي كُنَّا فِيهَا وَالْعَيْرَ الَّتِي أَقْبَلْنَا فِيهَا﴾ (يوسف: ٨٢)؛

نحو ثقافة دينية رشيدة

في زمن الشبهات والفتن (٣)

كتب: أسامة شحادة

في ختام هذه المقالات عن ضرورة تحصيل ثقافة دينية شرعية رشيدة، تقي المسلمين من سيل الشبهات والشهوات التي يُستهدفون بها من جهات متناقضة فيما بينها، لكنها متوحدة على المسلمين فقط (سيكون حديثنا اليوم عن منهج الاستنباط من نصوص الوحي، وهو المصدر الثالث لمعرفة الحقائق الدينية، التي أشار إليها الأستاذ بسطامي سعيد في كتابه المتميز (مفهوم تجديد الدين) وهي: «النصوص الموحاة، ومعاني هذه النصوص، والاستنباط منها، ولكل واحد من هذه الأقسام منهج علمي محدد مضبوط؛ فهناك منهج علمي لتوثيق النصوص، ومنهج لطريقة فهمها، ومنهج للاستنباط منها، وما يتوصل إليه عن طريق هذه المناهج حقائق لا شك في ذلك».

قال الإمام الشافعي: «فليست تنزل بأحد من أهل دين الله نازلة إلا وفي كتاب الله الدليل على سبيل الهدى فيها» (الرسالة: ١٩)، وقال ابن سريج: «ليس شيء إلا ولله -عز وجل- فيه حكم» (البحر المحيط: ١ / ٢١٧)، وقال إمام الحرمين: «والرأي المبتوت المقطوع به عندنا، أنه لا تخلو واقعة عن حكم الله -تعالى- متلقى من قاعدة الشرع» (البرهان: ٣/٢).

الوقائع والمستجدات

فالنصوص الشرعية فيها الكفاية لكل الوقائع والمستجدات والأزمان، ولكن قد يكون ذلك صريحا ومباشرا، أو غير صريح ولا مباشر؛ فتحتاج إلى استنباط وتدبر، وقام العلماء والأئمة بوضع قواعد وأصول؛ لذلك أثبتت عبر التطبيق والواقع صحتها

القرآن الكريم والسنة النبوية شاملة وكافية لكل شيء نحتاجه في أمور الدين؛ ولذلك ختمت النبوة برسالة نبينا محمد ﷺ، ومن تلك النصوص قوله -تعالى-: ﴿مَا قَرَأْنَا فِي الْكِتَابِ مِنْ شَيْءٍ﴾ (الأنعام: ٣٨)، وقوله -تعالى-: ﴿وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ تِبْيَانًا لِكُلِّ شَيْءٍ﴾ (النحل: ٨٩)، والراجح عند جمهور المفسرين أن المقصود (بكل شيء) كما يقول العلامة السعدي في تفسيره: «في أصول الدين وفروعه، وفي أحكام الدارين، وكل ما يحتاج إليه العباد؛ فهو مبين فيه، أتم تبين، بألفاظ واضحة، ومعانٍ جلية».

النصوص الشرعية

ولذلك جاءت أقوال الأئمة من القرون الأولى بأن النصوص الشرعية فيها كل أحكام الدين للوقائع الحادثة والمستقبلية،

فبعد أن تبين لنا تميز منهجية إثبات النصوص الشرعية ودقتها، وأن هذه النصوص كانت معانيها معروفة معلومة، أخذها الصحابة -رضوان الله عليهم- عن النبي -ﷺ-، ومن ثم توارثتها الأجيال؛ فيبقى معنا كيف نستنبط من هذه النصوص الأحكام الشرعية لمستجدات الأمور والقضايا؟ إذ الوقائع متجددة ولا تنتهي، والنصوص الشرعية محدودة!

شبهة واهية

قد يبدو هذا التساؤل أمراً ضخماً عند كثير من بسطاء المسلمين حين يطرحه أعداء الإسلام، أو بعض من اغتر بهذه الشبهات، لكنه في الحقيقة شبهة واهية، أبطلها العلماء منذ قرون عديدة؛ إذ القرآن الكريم يرشدنا إلى أن النصوص الشرعية من



الإمام النووي: الاعتناء بالاستنباط من أكد الواجبات المطلوبة؛ لأن النصوص الصريحة لا تفني إلا بيسير من المسائل الحادثة؛ فإذا أهمل الاستنباط، فات القضاء في معظم الأحكام النازلة

وصوابها، وأنها استوعبت توسع رقعة دولة الإسلام من جزيرة العرب، لتشمل العالم كله بقاراته وجهاته وتنوع شعوبه وأجناسه، وشملت هذه الأصول والقواعد كل مظاهر التقدم والتطور والنهضة العلمية والثقافية، والفكرية، التي تشهد بها عصور الحضارة الإسلامية، التي لم تأفل إلا حين تقاعس المسلمون عن التقيد بهذه الأصول والقواعد، وزاحمتها الخرافات والأباطيل والأفكار المنحرفة عن أصول الدين من المذاهب والفرق الضالة، وحين سارت في مسار التغريب وتقليد المحتلين.

استنباط الأحكام الشرعية

واستنباط الأحكام الشرعية للوقائع المستجدة من النصوص الشرعية كان النبي -ﷺ- يدرّب أصحابه عليه ويصحح لهم، ومن أمثلة ذلك أمره -ﷺ- بالصلاة في بني قريظة؛ فانقسم الصحابة إلى قسمين، قسم أخرّوا الصلاة حتى وصلوا بني قريظة وقد خرج وقتها، وقسم قالوا أراد -ﷺ- أن نُسرع، فصلّوا في الطريق؛ فلما بلغه ذلك أقرّ الطرفين على الاجتهاد. وعندنا قصة الرجلين اللذين فقدوا الماء في السفر؛ فتيّمّا وصليا، ثم وجدا الماء؛ فأعاد أحدهما الوضوء والصلاة، ولم يفعل ذلك الآخر، فقال لمن لم يُعد: «أجزأتك صلاتك وأصبت السنة»، وقال للذي أعاد: «لك الأجر مرتين» رواه أبو داود وصحّحه الألباني.

وفي ذلك يقول الإمام النووي: «فالاعتناء بالاستنباط من أكد الواجبات المطلوبة؛ لأن النصوص الصريحة لا تفني إلا بيسير من المسائل الحادثة؛ فإذا أهمل الاستنباط،

مقاصد الشريعة، كما فعل بعضهم فادعى إبطال فريضة الجهاد ونسخها، بحجة أننا في زمن العلاقات الدولية، وهذا القول -بخلاف أنه يبطل صريح الدين-؛ فإنه وصفة مثالية للرضى بالاحتلال والظلم والعدوان على بلاد المسلمين، وترك الدفاع عن الدين والعرض والأرض، ولا يفعل ذلك شريف أو مخلص.

أقسام الاستنباط

ويقسم بعض الباحثين عملية الاستنباط إلى ثلاثة أقسام هي:

- 1 - استنباط وتدبر من النصوص مباشرة، كقصة استنباط علي بن أبي طالب -رضي الله عنه- أن أقل مدة للحمل هي ستة أشهر من قوله -تعالى-: ﴿وَحَمْلُهُ وَفِصَالُهُ ثَلَاثُونَ شَهْرًا﴾ (الأحقاف: ١٥)؛ إذ الرضاع / الفصال أقصاه عامان/ ٢٤ شهرا لقوله -تعالى-: ﴿وَفِصَالُهُ فِي عَامَيْنِ﴾ (لقمان: ١٤)، والفارق بين ٣٠ شهراً و٢٤ شهراً هي ٦ أشهر.
- ٢ - أو قياس على نص شرعي لاشتراك العلة؛ فمثلاً من أغمي عليه وجب عليه الوضوء قياساً على وجوب الوضوء على من نام بيلة غياب الوعي، وكتحريم المخدرات قياساً على تحريم الخمر بيلة الإسكار.
- ٣ - أو تحكيم كليات الشريعة من الأمر بالعدل، والتعاون على الخير، والنهي عن الظلم.

في النهاية؛ أمل أن أكون قد بينت طرفاً من أصول الثقافة الدينية الشرعية الرشيدة، التي من تحصن بها وقي الشبهات والفتن في هذا الزمان الصعب، وأن لدى المسلمين من المناهج العلمية السليمة والكفيلة بمطارحة أعتى الشبهات والهجمات المشككة، وأن تتعلم هذه العلوم وإشاعتها بين الأجيال عبر وسائل الإعلام والتعليم وبمختلف الوسائل كفيل بحصر دائرة الغلو والتطرف في الدين بظلم وجهل من جهة، ودائرة الانحراف والضلال عن الدين اتباعاً للهوى والشيطان من جهة أخرى.

فات القضاء في معظم الأحكام النازلة، أو في بعضها» (شرح النووي ١١ / ٥٨).

علم أصول الفقه

ومن هنا جاء علم أصول الفقه الذي يقوم على بيان أنواع الأدلة الشرعية، وهي أربعة أصلية متفق عليها (القرآن، السنة، والإجماع، والقياس) وستة فرعية (الاستحسان، والمصلحة المرسلة، والاستصحاب، والعرف، ومذهب الصحابي، وشرع من قبلنا)، وآليات الاستنباط من الأدلة (العام والخاص، والمطلق والمقيد، والأمر والنهي، وغير ذلك)، وحال المستنبط، ما صفاته وشروطه حتى لا يدخل هذا المجال من ليس مؤهلاً، كحال كل العلوم؛ فلا يقبل التطبيق إلا من مؤهل طبياً، ولا تقبل الهندسة إلا ممن هو مؤهل هندسياً.

وعلم أصول الفقه علم قديم من زمن الصحابة الكرام، لكن أول من دون قواعده هو الإمام الشافعي بعد أن حاول بعض المندسين من الأمم الأخرى بث الشبهات والتحريفات بين المسلمين؛ ولذلك ما يزال أعداء الإسلام منذ زمن الشافعي ولليوم يكرهونه، ويسعون لهدم علم أصول الفقه الذي سد عليهم طريق العبث بالدين من خلال ضبط عملية الاستنباط من النصوص الشرعية بما يوافق مقتضى اللغة العربية التي نزل بها القرآن الكريم.

أصول الإسلام

كما أن عملية الاستنباط يجب أن تكون متوافقة مع أصول الإسلام المعلومة المشهورة؛ فلا يصح استنباط يبطل أصلاً معلوماً من الدين، أو يعارض مقصداً من